وحيد في المصعد

ضغط على زر المصعد، ووقف ينتظر وصوله، والتفت، وإذا هي من مدخل البناء تشرق كالشمس، أحس على الفور بشيء مختلف، خفق قلبه، ارتعشت يداه، انتابه شعور لم يعرف مثله من قبل، كأنه أخذ على حين غرة، أو كأنه فوجئ بغتة بما لم يتوقعه أو بما يتوقعه، لا يدري كنه ما انتابه، هي، هكذا قرر حالاً، بما يشبه اليقين، هي اختياري، هذه أول مرة أختار، هي اختياري الحر الأول والأخير، وليس ثمة سواها، شعرها الأشقر خيمة نور، معطفها الأبيض دفء وحنان، عيناها شط هادئ الأمواج، حضورها كمرح الأطفال.

في مكتبي ثلاث موظفات، عشقتهن جميعاً، كلهن تودَّدن إليَّ، كل واحدة فتنتني بما يميزها، وداد سمراء رشيقة، ناحلة ناعمة، حركتها آسرة، لحديثها سحر، سناء ممتلئة، مثيرة، مشتهاة، لقهوتها نكهة متميزة، لا أحد يعد القهوة مثلها، تقدمها بأنامل تدعوك إلى لثمها، هدى هادئة جادة متزنة، لا تتكلم إلا بقدر، جميلة بكل مقاييس الجمال، ربما كانت أكثرهن مناسبة لتكون زوجة، ولكن في النهاية أدركت

أن اختياري ليس حراً، هن مفروضات عليَّ فرضاً، فأنا معهن في مكتب واحد، ومن الطبيعي أن نتعارف وأن نتبادل المشاعر إلى درجة الحب، ولكن أي حب هذا؟ أو أي اختيار؟!

في مشاركتي بندوة القصة في الجزائر قبل عشر سنوات، التقيت بقاصة تونسية، سمراء صغيرة، ناعمة كالبنفسجة، قلت هي المنى، ناديتها منى، قبلته اسماً جديداً، تعلقت بي، أعجبتها قصصي، أعجبت بقصصها، تركنا الجلسات المسائية للندوة، ورحنا نتمشى معاً في شارع عبد القادر الجزائري، دخلنا الأروقة، اشتبكت أصابعنا، تعانقت الأكف، سهرتْ في غرفتي بفندق السفير إلى الفجر، حط الحمام على شرفتنا، رمينا له فتات الخبز، تناولنا معاً القريدس، في النهاية قلت لنفسي: هذا ليس حباً ولا اختياراً، هو محض مصادفة، لولا الندوة والدعوة لما كان هذا اللقاء.

أمي تعبت قدماها وهي تبحث لي عن زوجة مناسبة، وصفت لي العشرات، أعجبت بكثيرات، رشحت لي هذه وتلك وثالثة ورابعة وخامسة، وأنا أقول لها: هذه ابنة الجيران، أحس أنها مفروضة علي، تلك تجمعنا بها القرابة، والثالثة أنت اخترتها لا أنا، والرابعة كانت قوية الشخصية، أحسست أنها ستفرض علي إرادتها، ولن يكون

لي خيار، والخامسة والسادسة والسابعة.. ثم ماتت أمي غيظاً، ولم أتزوج.

ابنة خالتي رشحت لي زميلتها في الوظيفة، زرتها في مكتبها، بدعوة من ابنة خالتي، وشربنا معاً القهوة، زميلتها بيضاء كالحليب، شعرها أشقر مشوب بحمرة، تشع في معصمها أساور الذهب، أبوها تاجر، لست أدري لماذا نفرت منها، ثم اكتشفت أن ابنة خالتي هي نفسها مغرمة بي، أو فلأقل مقتنعة، ابنة خالتي ليست فائقة الجمال، ولكنها جميلة، ليس هناك امرأة قبيحة، كل النساء جميلات، لا تخلو أي واحدة من مسحة من جمال، ومهما يكن، فقد قلت لنفسي: هي ابنة خالتي، ولو لم تكن ابنة خالتي لما كنت فكرت فيها، أو لما كانت هي فكرت بي، إذن هي مفروضة علي، وهذا ليس اختياراً.

آخر ما لجأت إليه هو شبكة المعلومات، أعلنت عن رغبتي في الزواج، وصلني أكثر من عشر رسائل، أكثرها إقناعاً رسالة من أستراليا، من شابة ترغب في العودة إلى الوطن، للزواج فيه والاستقرار، المواصفات كلها مقنعة، بل مغرية، كدت أوافق، لكن في اللحظة الأخيرة رأيت أن هذا ليس اختياري أنا، إنما اختيارها هي، ولم أجب عن الرسالة.

وها قد تجاوزت الأربعين، لا بد أن أختار، وهذه القادمة الآن في مدخل البناء هي اختياري الحر، لا أعرف من هي؟ ولا من تكون؟ ولكن ثمة شعور ما يقول لي هي اختيارك الحر، خطواتها واثقة، رأسها مرفوع، تشد إلى صدرها البارز حقيبة صغيرة، هي ملف أوراق، تجاوزت الثلاثين، في وجهها لطف وهدوء، نظرتها كأنها أم، كل ما فيها يدعو إلى الحديث معها ببساطة وعفوية، كأنني أعرفها منذ ألف عام.

- تفضلي، المصعد وصل، حظي جميل بحضورك.

تبتسم، تشرق البهجة في قلبه، يتشجع.

يفتح باب المصعد، يقف قبالتها، يسد عليها الطريق، يدعوها مؤكداً:

- تفضلي، أنا كاتب قصة، وعضو في اتحاد الكتاب، تسرني دعوتك إلى فنجان قهوة نشربها معاً في مقر الاتحاد.

ترد بلطف، والبسمة لا تفارق فمها، وجهها يزداد إشراقاً:

- أفكر من زمان في زيارة الاتحاد، أنا أحب قراءة القصص والروايات، ولكن لا وقت لدي، أنا معاونة

مدير المصرف، أدعوك الآن إلى مكتبي لتشرب القهوة، وأفتح لك حساباً في المصرف.

الآن عرفت، إنها رجاء، كأنها هي، رجاء ابنة الجيران، التي نشأت معها، نلعب معاً لعبة العروس والعريس، لولا أن رجاء تزوجت منذ عشرة أعوام وأنجبت، لقلت إنها هي، أمي قالت لأمها: رجاء لوحيد، وأمها قالت لأمي: وحيد لرجاء، هل هي نبوءة؟ أو مجرد أمنية، سأسميها رجاء، هي رجاء.

يهم بالمضي، يخطو.

المصرف والحساب والأموال والشيكات، وليس في جيبي ثمن علبة تبغ، وراتبي لا يكاد يكفي لأسبوع، وأنا الموظف في مديرية المواصلات على الشهادة الثانوية، ماذا؟ هل يكفي أن أهديها قصة قصيرة؟ أو مجموعة قصصية؟

يقف، يعلّق متعللاً:

- ولكن المصعد لا يتوقف في الدور الأول.

الابتسامة تملأ وجهها، ترد:

- أنتم في اتحاد الكتاب اقترحتم ألا يتوقف المصعد في الدور الأول، كي لا يتعطل، احتججتم بكثرة رواد المصرف.

تشد ملف الأوراق إلى صدرها، تمضي باتجاه الدرج، وهي تضيف:

ـ أعدك بزيارة، ودعوتي لك مفتوحة، تفضل في أي وقت تشاء، لشرب القهوة أو فتح حساب، ولو بمبلغ بسيط، أو حتى من دون أي مبلغ.

وتمضي وشذاها ما يزال يلفه، وقلبه يخفق لهمساتها.

يدخل المصعد، يضغط على زر يحمل رقم ٩، يتحرك المصعد، يرتفع متراً، مترين، يبلغ الدور الأول، وتسقط العتمة، ويتوقف المصعد، وهو في داخله وحيد.

الجدران مغلقة، السقف واطئ، الهواء ينفد، جرس الاستغاثة معطل، لا تيار كهربائي، لا هواء، لا صوت، لا صدى.

هل يدق على الجدران؟ هل ينتظر عودة التيار الكهربائي؟ هل تأتي رجاء معاونة مدير المصرف لتفتح له الباب وتخرجه، فهي وحدها من تعرف أنه وحيد في المصعد، ولكن ليس ثمة باب للمصعد في الدور الأول حيث المصرف؟